مداخلة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس "تجمّع الصداقة اللّبنانيّ للحوار الإسلاميّ–المسيحيّ (تصالُح)"، ورئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، حول موضوع "من التاريخ إلى... الذاكرة – إشكاليّة تاريخيّة لبنانيّة وتوجّهات تربويّة للغد"، يوم الأربعاء الواقع فيه ٢٧ آذار (مارس) ٢٠١٩، في مسرح فرانسوا باسيل، في حَرَم الابتكار والرياضة.

بداية إسمحوا لي أن أرحّب بكم أجمل الترحيب في داركم، دار الجامعة اليسوعيّة، بدعوة من جمعيّة "تصالح"، وهي التي تُعنى بشأن تعزيز العلاقة الحقّ بين الإسلام والمسيحيّة، وبالتالي أرحّب بكم مجموعة من الأساتذة والمفكّرين إذ إنّ العلم يجمعنا والتفكير هو مسارنا. وبما أنّ هذا النوع من اللّقاءات الفكريّة يتطلّب الإعداد والتنظيم، فلا بدّ لي أن أوجّه الشكر إلى مجموعة ناشطي "تصالح" الذين حضّروا لهذه الندوة بكثير من التأنّي والانتباه.

إنّ عنوان هذه الندوة – ورشة العمل هذه من **الذاكرة إلى... التاريخ**، يتناول موضوعًا لا كغيره من المواضيع، إذ إنّه يطالُ الماضي بأحداثه ومنتوجاته وعلاقات الناس ببعضهم البعض وأخبار الجماعات القبليّة والعمرانيّة والمذهبيّة والدينيّة وروايات الحروب والسياسة والبطولات بكلّ أشكالها. وكذلك فإنّ هذه الندوة تهتمُّ بكيفيّة تأثير أخبار الماضي على الحاضر وكذلك بطريقة تدوين التاريخ لنا للأجيال الحاضرة واللاحقة ليكون كتاب التاريخ عنصر تقوية للإرادة في سعيها للعيش مع الآخر عيشًا حرًّا كريمًا على قاعدة الأخوّة والمواطنة المشتركة. وإنّي في هذه العُجالة والدقائق المتخصّصة لهذا المدخل أتوقّف عند النقاط التالية:

الأولى، عندما وضعت اللّجنة العلميّة عنوان هذه الورشة، برز في الموضوع رأيان: الأوّل يقول "من الذاكرة إلى التاريخ" والثاني "من التاريخ إلى الذاكرة". فالواقع أنّ الرأيين لهما ما يبرّر طرحهما. نحن نعرف أنّ التاريخ بمعنى الأحداث التاريخيّة كان يُحفظ في الصدور أي في الذاكرة عندما لم يكن هنالك لا قلم ولا أوراق. وبالتالي جاء التاريخ وكُتب التاريخ إنطلاقًا ممّا حُمل في الصدور والأذهان والذاكرة. فالتاريخ هو الأحداث

والوقائع وهذه تأتي في الأوّل، إلاّ أنّنا لا نعرفه إلاّ بعد أن تكون قد خزّنته وأوّلته الذاكرة إستنادًا إلى معطيات نقول بالمجمل إنّها إيديولوجيّة. أيّ أنّ الذاكرة تعيد إنتاج أحداث التاريخ وكتابتها في إطار ثقافة دينيّة وإجتماعيّة وسياسيّة معيّنة بحيث يأتي التاريخ في صيغة جديدة تتلاءم وحاجات ومصالح الناس. ولدينا في هذا المجال نموذج نستمدّه من الثقافة واللّغة الألمانيّة بحسب الفيلسوف هيغل من القرن التاسع عشر عندما قال :" إنّ كلمة تاريخ إنّما تدل على الأحداث التاريخيّة Historie، وهناك تاريخ آخر حفظته الذاكرة وأعادت كتابته روح الشعب والجماعة ويُدَلُّ على ذلك بكلمة Geschichte ومعناها التاريخ أيضًا إلاّ أنّه التاريخ المؤوَّل. فعلى سبيل المثال، الإمبراطور نابوليون، وانطلاقًا من أفعاله الحربيّة، هو بطل وعظيم من العظماء في منظور فئة معيّنة، ومجرم حقير وسفّاك دماء بالنسبة إلى شعب آخر.

الثانية، مشكلتنا اليوم في كتابة التاريخ، وحتى في الأحداث المعاصرة، تكمن في أنّ التاريخ، كما تصوغه الذاكرة لمجموعة معيّنة، هو الذي يفرض نفسه كقراءة أحاديّة. وتتعقّد الأمور عندما تصبح هذه القراءة قراءة مقدّسة تروي الأحداث كرموز مقدّسة، لها وقعها لا على الماضي فقط، بل على الحاضر وعلى المستقبل في آنٍ معًا. لا بل أنّ هذه القراءة المقدّسة الأحاديّة تجد في أحداث اليوم والزمن الراهن إمتدادًا للماضي بوصفه مرجعًا رمزيًّا. فلم تعد الأحداث التي يصنعها البشر أمرًا بشريًّا تعيد إنتاجه الذاكرة اليوم بشكل مكتوب وتضفي عليه المعنى المستند إلى الحاضر بل أصبحت لها الهالة القدسيّة وحتى ولو كانت بعيدة كلّ البعد عن المدى الدينيّ أو المذهبيّ. فكيف الخروج من هذه الحال التي تقوّي العصبيّات من كلّ الأنواع، وتثبّت النمطيّة والصُور المشوّهة خصوصًا عن الآخر المختلف؟ كيف نستطيع إعادة إنتاج التاريخ القابع في الذاكرة وهي ذاكرة حيّة خصوصًا وأنّه في الكثير من الأحيان توقّف التاريخ عند حدث معيّن أو حقبة محدّدة من الماضي فتجمّد المعنى وأصبح كلّ أمر يؤوَّل في ضوء ذلك الماضي؟

أمّا الثالثة، فهي قدرة الذاكرة أو بالأحرى نزعة الذاكرة، ذاكرة الجماعة، إلى تأليه البطولات الخاصّة بها وبالتالي نسيان أو إهمال كلّ ما هو مشترك وحسن بين الجماعات والشعوب وكذلك ما له علاقة بالمساحة

العامّة والثقافة المختلطة. لا شكّ أنّ دور الزيجات المختلطة في لبنان كان لها الدور الواسع في كسر القالب حتى بين المذاهب المنضوية تحت لواء دين واحدٍ وإبراز القيمة المضافة التي شكّلها ويشكّلها حتى اليوم الزواج المختلط حتى ولو أنّ النزعة اليوم هي الزيجة من المذهب نفسه. وأيضًا وأخيرًا، تُطرح الأسئلة، بعد هذا الوصف وهي تنمّ عن حالة كتابة التاريخ والعلاقة بين التاريخ والذاكرة وكيف أصبح إنتاج التاريخ من طرف الذاكرة بدل أن يكون إنتاجه من "روح الشعب" على المستوى الشموليّ الإتّفاقيّ، وكيف أصبح هذا الإنتاج عبئًا على التاريخ نفسه لا بل خطرًا عليه وعلى استمراريّته، بدل أن يكون فضلاً وكفاحًا وإنتاجًا واقعيًّا وراهنًا لمعنى الحياة أكان ذلك على المستوى الفرديّ أو الجماعيّ؟ إنّي من جهتي، وهذا ليس إلاّ رأيًا خاصًّا، لا بدّ من إنتاج ثقافة متجدّدة اليوم عبر قراءة تاريخيّة جديدة تقوم على إعطاء الوثيقة التاريخيّة أفضليّة على التأويل والشرح والتعليل والتضخيم. الأفضليّة للوثيقة وللوثائق مع القليل من الشرح والعديد من الأسئلة المرافقة ليكون للأستاذ وللتلميذ وللطالب الرأي الناقد الآتي من الفكر الثاقب. وتكون الوثائق جزءٌ منها يدلّ على حالة معيّنة يغلب فيها الخاصّ على العامّ والجزء الأخير يغلّب فيها المشترك والمتّصل على ما هو خاصّ ومتعصّب.

إنّه في النهاية خيار ثقافيّ لا بدّ أن يتعزّز ويعزّزه كذلك وجود الدولة الحاضنة للجميع التي تستفيد من هذا النوع من الثقافة فتستطيع أن تضطلع بدورها الحاضن للذاكرة المشتركة وللتاريخ.

يقول الأديب والشاعر الفرنسيّ رينه شار (René Char 1907-1988): "لقد ورثنا في أوروبا ما ورثناه من التراث من دون وصيّة" أي أنّ أوروبا تحرّرت من الماضي إذ أعادت كتابة تاريخها في ضوء الحاضر وتحدّياته وما زالت في هذا النهج. أمّا نحن، في هذه البلاد ومن هذه المنطقة، فلقد ورثنا ما ورثناه مع وصيّة لا بل مع ألف وصيّة ووصيّة، فلا بدّ لنا أن نتعاطى مع الأمر بالحكمة والرويّة علّنا نؤوِّل الوصيّة فنكتب معًا تاريخنا الجديد.